



أخرج الإمام أحمد في مسنده والبخاري في صحيحه، عن أبي مسعود عقبة بن عمرو البدرىي، - رضي الله عنه -، قوله: "قالَ نَبِيُّ اللَّهِ - صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ((إِنَّ مِمَّا أَذْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنُعْ مَا شِئْتَ))".

قال الإمام الطحاوى في شرح مشكل الآثار: "وكان معنى ذلك - والله أعلم - الحصن على الحياة والأمر به، وإعلام الناس: أنهم إذا لم يكونوا من أهله صنعوا ما شاؤوا، لأنهم أموروا في حال من الأحوال أن يصنعوا ما شاؤوا.... بمعنى: إذا لم تستحي صنعت ما شئت. وقد يكون ذلك على الوعيد، والوعيد لفظه لفظ الأمر، وهو في الحقيقة بخلاف ذلك. ومنه قول الله - عز وجل - : {اعملوا ما شئتم} [فصلت: 40]، قوله - عز وجل - : { واستفزز من استطعت منهم بصوتكم وأجلب عليهم بخيالكم ورجالكم وشارکهم في الأموال والأولاد وعدهم} [الإسراء: 64]. ثم أعقب - عز وجل - ذلك بما بين لهم المعنى الذي يخرج أهله إلى ما يخرجهم إليه ويدخلهم فيه بقوله - عز وجل - : {وما يعدهم الشيطان إلا غروراً} [النساء: 120]. فكان لفظ ذلك لفظ الأمر، وباطنه النهي والوعيد".

وفي الصحيحين عن ابن عمر - رضي الله عنـهما -: أنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَرَّ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْأَنْصَارِ وَهُوَ يَعْظِظُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : ((دَعْهُ، فَإِنَّ الْحَيَاةَ مِنْ الإِيمَانِ)).

وعندهما عن عمران بن حصين - رضي الله عنـهما -، قال: قال رسول الله - صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : ((الْحَيَاةُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ)). وفي رواية لمسلم: ((الْحَيَاةُ خَيْرٌ كُلُّهُ)), أَوْ قَالَ: ((الْحَيَاةُ كُلُّهُ خَيْرٌ)).

وعندهما عن أبي هريرة - رضي الله عنه -: أنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، قال: ((الإِيمَانُ يَضْعُ وَسَبْعُونَ أَوْ يَضْعُ وَسِتُّونَ شُعْبَةً: فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الظَّرِيقِ، وَالْحَيَاةُ شُعْبَةٌ مِّنَ الإِيمَانِ)).

قال الإمام النووي - رحمـه الله تعالى - في رياض الصالحين، باب الحياة من كتاب الأدب: "قَالَ الْعَلَمَاءُ: حَقِيقَةُ الْحَيَاةِ خُلُقٌ يَبْعَثُ عَلَى تَرْكِ الْقَبِيحِ، وَيَمْنَعُ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي حَقِيقَةِ الْحَقِيقَةِ".

ورأينا عن أبي القاسم الجنيد - رـحـمه الله -، قال: الْحَيَاةُ: رُؤْيَةُ الْأَلَاءِ - أَيُّ النِّعَمِ -، وَرُؤْيَةُ التَّقْصِيرِ، فَيَتَوَلَّ بَيْنَهُمَا حَالَةً تُسَمَّى حَيَاءً. والله أعلم".

قال الإمام ابن علان الصديقي - رـحـمه الله - في (دلـيل الفالـحين لطرق رياض الصالـحين): "وإنما جعل من الإيمان وإن كان غريزة لأنـه: قد يكون تخلفاً واكتساباً كما في أعمال البر، وقد يكون غريزة، ولكن استعمالـه على قانون الشرع يحتاج إلى اكتساب ونية وعلم، فهو من الإيمان لهذا، ولكـونـه باعـثـاً على أفعالـ البرـ مـانـعاً منـ المعـصـيـةـ". وقال: "صاحبـ الـحـيـاءـ قدـ يـمـتنـعـ

عن أن يواجه بالحق من يستحي منه، فيترك إنكار المنكر عليه وأمره بالمعروف، وقد يحمله الحياة على الإخلال ببعض الحقوق، وغير ذلك مما هو معروف في العادة. والجواب ما أجاب به ابن الصلاح وغيره من أن ذلك المانع ليس حياءً حقيقياً بل صورياً وإنما هو عجز وخور ومهانة، وتسميتها حياءً من إطلاق بعض أهل العرف، أطلقوه مجازاً لمشابهته الحياة الحقيقية، وإنما حقيقة الحياة خلق يبعث على ترك القبيح ويمنع من التقصير في حق ذي الحق ونحو هذا، ويدل عليه ما ذكرنا عن الجنيد".¹

يفهم من كلام الإمام النووي - رحمه الله تعالى - أن الحياة على مراتب: أعلىها مراقبة الله - تعالى - فيما أمر ونهى، ومنها معنى يتعلق بالتعامل بين الناس.

ومن كلام ابن علان أن الحياة منه محمود ومنه مذموم، وأن المذموم ليس بحياء على الحقيقة وإنما سمي به للامتناع لا غير، وهو الذي يطلق عليه الخجل. فالخجل خلق يحمل على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو ضعف في نفس صاحبه. أما الحياة فلا يمنع من هذا وهو (لا يأتي إلا بخرين).

فترك القبيح ينعكس على الإنسان نفسه، كما على مجتمعه القريب والبعيد، فيؤمن الناس شره، ويأنسون ببره وأدبه. أما لو أنه سلك مسلك القبائح فسوف ينعكس ذلك على سلوكه وعلى مجتمعه القريب والبعيد، فيتحول هذا الإنسان بالقبيح المتلبس به إلى مصدر قلق وإزعاج وخوف وإجرام. وهو من مقصود قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : ((إذا لم تستح فصنع ما شئت)).

وما الشرور التي تطغى على المجتمعات اليوم إلا ثمرة من ثمار انعدام خلق الحياة عند الناس. ولن يجد ذو عقل مشقة في استنتاج ما عَكَسَهُ ترك خلق الحياة على المجتمع الذي يعيش فيه.

مع العلم أن العالم كله اليوم بات أشبه بمجتمع واحد، لذلك فإن ترك الحياة في مجتمع مثل أمريكا مثلاً سيجد صداته في مجتمع مثل المجتمع اللبناني، ذلك أننا في هذه المنطقة من العالم، وأقصد بها المنطقة العربية التي يشكل لبنان جزءاً منها، تتبع الغرب حذوها القذرة بالقذرة، ((حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ خَرْبٍ)) لدخلناه وراءهم. كما أخبر نبينا الصادق المصدوق - عليه الصلاة والسلام - .

وهذا نراه في تشبه أبنائنا بأبنائهم، وبناتنا ببناتهم، ورجالنا ب رجالهم، ونسائنا بنسائهم.... وفي تشبه حكامنا بحكامهم...

فحكم الغرب لا يتوانون لحظة عن دعم أي عمل فيه قتل وإبادة المسلمين، والأمثلة كثيرة: البوسنة، كوسوفا، سريبينتشا، العراق، أفغانستان. لذلك نجد أن حكامنا في بلاد الشام، وتأثيراً بالغرب، يجهدون في إبادة شعوبهم بجامع كون غالبيتهم من المسلمين، ومن أئدِّهم من غير المسلمين يأخذ حكمهم.

وهل خلق الحياة خاص فقط بالمؤمنين؟ طبعاً لا؛ فهذا الخلق إنساني بشري، حيث وجد الإنسان، ومنذ ظُجد، وقد وصفه النبي - صلى الله عليه وسلم - بأنه من كلام النبوة الأولى، مما يفهم منه أن أول من قاله هو سيدنا آدم - عليه السلام - .

قال الإمام الخطابي - رحمه الله تعالى - في معالم السنن: "معنى قوله (النبوة الأولى) أن الحياة لم يزل أمره ثابتاً واستعماله واجباً منذ زمان النبوة الأولى، وأنه ما مننبي إلا وقد ندب إلى الحياة وبُعِثَ عليه، وأنه لم يُنسخ فيما نُسخَ من شرائعهم ولم يُبدلَ فيما بُدِّلَ منها؛ وذلك أنه أمر قد عُلِّمَ صوابه، وبيان فضله، واتفقت العقول على حسنِه. وما كان هذا صفتَه لم يجزَ عليه النسخ والتبديل".

من هنا كان قول الإمام الواهidi: "الاستحياء من الحياة، واستحياء الرجل من قوة الحياة فيه لشدة علمه بموافق العيب. قال: والحياة من قوة الحسّ ولطفه وقوّة الحياة".

وقال الإمام ابن فورك في مشكل الحديث وبيانه: "يريد إذا لم يستح الرجل ركب كل فاحشة وقارب كل قبيح ولم يحجزه عن ذلك دين ولا حياة".

لذلك؛ فمن كان ذا حياة وعلم بموقع العيب كان الحياة من سجاياه وخلقه. أما من كان ممن قال الله - تعالى - فيهم: {أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون}، أو ممن قال فيهم: {فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور}. فأمثال هؤلاء لا يجد الحياة إلى مسلكهم سبيلاً. وصدق القائل:

ليس من مات فاستراح بميتٍ *** إنما الميتُ ميتُ الأحياء

وأكثر من هذا حاله الذي اغترّ بقوته المادية، وظنَّ أن أحداً ممن يستضعفهم لن يقدر على مغالبته، فيتسلط ويتجبر ويقتل ويبيد أجيالاً، كما فعل فرعون، فقط لأنه يرى أن قوته تعطيه هذا الحق. فأمثال هذا ليسوا من البشرية في شيء بل ولا من الحيوانية، لأن الحيوان عنده قوانين خاصة تحكم علاقة أصنافه بعضها ببعض، أما هذا فلا شيء يردعه، كالأعرابي الذي كان ينتمي إلى قبيلة قوية في عددها وعدتها، سئل يوماً:

- ما العدل عندكم؟

- قال: أن أسطو على غنم جاري فآخذها.

- فقيل له: إذا كان هذا العدل، فما الظلم عندكم؟

- قال: أن يأتي جاري ويطالب بعنته.

هكذا هي مفاهيم من رکن إلى القوة بعيداً عن الحق، يضع معاني جديدة لمصطلحات معلومة لتناسب جبروته وانحرافه وظلمه وسلطه على رقاب البشر، وإن كانت هذه المعاني تخالف كل التاريخ وكل القيم الإنسانية، فهذا كله لا يهم لأن أصحابنا فقد كل ما له علاقة بالحياة.

فمن آثار انعدام الحياة مثلاً، ما نسمعه دائمًا من ممثلين للمحافل الأممية من أن هناك مستويات مقلقة لأعداد القتلى في سوريا يومياً.

ما الذي يعنيه هذا؟

هذا يعني أن على النظام السوري ألا يسرف في القتل اليومي، وعليه - مثلاً - أن لا يتجاوز العشرين قتيلاً في اليوم الواحد، فإذا تجاوزه فهذا مذلة للقلق، أما إذا كان ضمن المستوى المقبول، فيمكن للمجتمع الدولي أن يتفهم ذلك.

فهل هذه دعوة لوقف القتل؟

ومن آثار انعدام الحياة مثلاً، إطلاق سراح العميل فايز كرم من سجون الدولة اللبنانية.

مع العلم أنه أدين قضائياً وبالأدلة الثابتة الدامغة أنه كان يتعامل مع العدو الصهيوني، وهو كان عميداً في الجيش اللبناني. وأقيمت له احتفالات طنانة رنانة من عائلته الصغيرة أسرته والكبيرة التيار الوطني الحر واستقبل في بلدته زغرتا بالزغاريد والابتهاج، مع العلم أن بلدة زغرتا محسوبة تاريخياً على النظام السوري، ومعلوم أيضاً أن زغرتا من أهم حلفاء (المقاومين الأبطال) في جنوب لبنان، ومعلوم أيضاً أن النظام السوري وحكام زغرتا حلفاء للمقاومة...

والسؤال: ما الرابط بين العمالة لليهود، وبين حزب المقاومة، وبين زغرتا، والنظام السوري؟ إنها معادلة صعبة الفهم، إلا من خلال قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : ((إذا لم تستح فاصنع ما شئت)).

ثم إن العجب لا ينقضي من دولتنا المجلة التي أطلقت سراح (العميل)، كيف أنها ومنذ أكثر من خمس سنين تعاملت شبانا اللبنانيين، طبعاً لم يتعاملوا مع العدو، ولكنهم تعاملوا مع دينهم وقيمهم، تعاقلهم دون محاكمات، تعاقلهم اعتقالاً إدارياً، أكثرتهم حتى اليوم لا يعلمون ما هو جرمهم! في الوقت الذي تقام الفعاليات في لبنان للتضامن مع الموقوفين إدارياً في

فلسطين، وبرعاية ومشاركة أحزاب المقاومة. فكيف يمكن أن نفهم هذه المعادلة الصعبة؟
يمكننا أن نفهمها من خلال ((إذا لم تستح فاصنع ما شئت)).
والأمثلة طول، وخلاصة الكلام نحن نعيش الزمن الذي يؤمنُ فيه الخائنُ، ويُخونُ فيه الأمينُ، ويُصدقُ فيه الكاذبُ، ويُكذبُ
فيه الصادقُ، ويتكلّم في الناس الرُّؤيسيَّةُ. !!!... وللحديث بقية.

المصدر: رابطة العلماء السوريين

المصادر: